

الطفولة المعذبة

الباب أخيراً وأطل برأسه وقال له :

(٣)

— باستطاعتك الآن أن تعود إلى بيتكم ...

خرج محسن بسرعة من الحجرة وهو لا يصدق أنه نجا وعبر فناء المدرسة وهو يلتفت خلفه مذعوراً كأنه يخشى أن يغير هذا الفراش رؤية ويعيده مرة أخرى إلى هذا السجن الرهيب المليء بالخوف ...

وعندما صار محسن في الشارع لم يتخذ طريقه إلى البيت ، فإن نفسه لا زالت مليئة بالغضب والحقد ، ولم يستطع خوفه من والده أن يتغلب على مقته له ؛ فصمم على الذهاب إلى ابن خالته (عزيز) ليثبه شكواه ؛ ويحكي له قصة هذا الظلم الذي انصب عليه ... ولم تدع عواطفه المتدفقة التي تملأ كيانه ؛ وتكاد تنفجر لأى عارض وفي أى لحظة مجالا للتفكير في عاقبة الأمر ومغبة هذه المخاطرة . وكان بيت خالته بعيداً .

في الطرف الآخر من المدينة ؛ ولكن ذلك لم يثنه عن تصميمه ، فاسرع الخطو وهو يفكر فيما سيقوله وفيما ينوى أن يعمل .. نعم أنه لن يعود مرة أخرى إلى المنزل حيث العذاب والهوان ، بل انه سيبقى عند خالته وسيبتأ من والده ، أما والدته فإن حنت إليه وعطفت عليه فبإمكانها أن تزوره فإنها لا تستطيع أن تمنع عنه شر هذا الوالد الظالم ... وسيتخذ (محمد) والد عزيز أباً له ، وسيخلص له الطاعة ، فإنه يكن له جاً ، كما أن الآخر يبادل هذا الحب ... وستوثق صداقته مع عزيز وسيقضى معه أوقاتاً طيبة لأنه سيكون معه دائماً ... ووضحة ... ابنة خالته الصغيرة ... ما ألفتها وما أظرفها ! ... سيلعب معها ولا شك كثيراً ؛ وسيحدث معها كثيراً ... لن يشعر هنالك بالحرج كما يشعر أمام الغرباء ؛ ولن يعتريه الحجل أو يرتبك في كلامه معها ... بل أنه سيتحدث بملء صوته فلن يعيب عليه أحد هذا السلوك أو يوبخه .. وسيضحك أيضاً حين يحلو له الضحك بحرية تامة ؛ فلن يمنعه أحد أو يعيره إنسان ... إنه لا يزال يتذكر جيداً كيف مر ذلك اليوم — الذي زارهم فيه مع أمه وأخته (منور) — بسرعة غريبة ؛ وكأنه ساعة أو بعض ساعة ... لقد كان يوماً من أسعد الأيام في حياته ... نسي في أثنائه همومه ومتاعبه لحظة من الزمان ؛

ظل محسن رهين هذه الحجرة الضيقة الخائفة طيلة اليوم وحيداً حزينا مطرقاً حتى بدأت الدنيا تظلم معلنة قدوم الليل ، فذب الذعر في قلب الطفل الغريب ، وأصبح خياله المنطلق نهبا للأفكار السوداء والوساوس ... وخشى أن ينسوه في هذه الحجرة الخيفة أو يهملوه ... ولا زال كلام بعض الطلبة بأن هذه الحجرة (مسكونة) مرتسما في ذهنه ... وكان كثيراً ما يسمع القصص الغريبة الخارقة التي يتناقلها الناس عن هذا الحروف (المسلسل) بإيمان وتأكيد ، وخصوصاً تلك التي رواها أحد الطلبة ممن كان نصيبهم السجن في هذه الحجرة والتي أكد فيها أنه كان يسمع أصوات سلاسل الحروف موهوم ... وكان قلب محسن يمتلىء بالفزع وهو يصغى إلى هذه القصص فكيف به الآن وقد أصبح منها غير بعيد ... وراح يتصور هذا الحروف بسلاسله الضخمة التي يجرها جراً كلما مشى فتثير ضجيجاً رهيباً في السكون الشامل ... وبعينه اللتين تبرقان في الظلام الدامس ، ويكاد الشرر يتطاير منهما ... وبأنيابه الطويلة الحادة (كالسكاكين) وهو يكشف ويتهدد ... وبشعره الكثيف الفاحم الذي يتدلى على جسمه الضخم وعلى وجهه — على الأخص —

... وما كادت هذه الصورة الخيفة تكمل في خياله ويضعف فيها جانب الوهم ويقوى فيها جانب الحقيقة حتى استسلم لها بكل وجدانه وجوارحه ... وخيل إليه فجأة أن الجدار ينشق عن هذا الشبح الخفيف ، فهب من مكانه مذعوراً والتفت ولكنه لم ير شيئاً . . ولكن مخاوفه بالرغم من ذلك أخذت تزداد ، وخیالاته تكبر .. وانتظر أن ينقض عليه هذا الجنى ذو السلاسل الحديدية بين وقت وآخر . فأخذ يقرب إلى الشباك الضيق ويلتصق به إلتصاقاً شديداً ؛ ووصل إلى مسامعه وهو في هذه الحالة من توتر الأعصاب وهيجان العواطف صوتاً ضئيلاً حسبه مقدمة لما هو مقبل .

فهم بأن يصرخ من الملح لولا أن لاحظ فجأة الفراش وهو قادم نحوه وييده مفاتيح الحجرة ؛ فتهدت تهدة الخلاص وتراخت أعصابه وبدأت عواطفه . . وسمع الفراش وهو يعالج القفل وفتح

قصة

وفارقه شبح والده الخفيف الذي يهدده بين لحظة وأخرى ... وهو يلعب مع «وضحة» بالطين ... يكيفانه بين أيديهما ويصنعان منه أشكالاً مختلفة على هيئة الماعزة أو القطة ... أو يصنعان منه (راحة) يركزان فيها - وهي طرية - عوداً صغيراً هو بمثابة مقبضها ثم يضعان هذه الأشكال في الشمس حتى تجف وتصبح صلبة قوية ... وكانا أيضاً يثرثران كثيراً وهما مشغولان لاهيان بعمل هذه الألعاب ... كم هي مسلية ومضحكة حينما تذكر له ببراءة الأطفال أنه الآن بمثابة زوجها ... أليست هي ابنة خالته!! ولكنه يجيبها بأنهما لا يزالان صغيري السن ولا يتزوج إلا الكبار!! فتقول له جادة وكأنها تريد أن تطمئن ... وهل ستزوجني إذا كبرت؟ فيؤكد لها أنه سيفعل!! فتطرب أيما طرب ويفيض السرور على وجهها ، ويتجلى الرضا في محياها وفي عينها ... وانتشى لهذه الذكريات وانغمس فيها وراح يتمثلها في ذهنه كأنها قد عادت إليه مرة أخرى ... ولم يشعر بأنه ندم على ما أقدم عليه ، بل راح يمني نفسه بالسعادة المقبلة والنعم المنتظر ... فسكن طأثره ، وهذا تأثره ، فرفع رأسه ليتثبت من معالم طريقه ... ولكن ماذا حدث؟!! إن هذه البنات التي تحيط به من الجانبين غريبة عليه لم تعود عيناه رؤيتها قبل هذه المرة ... واستبدت به الحيرة .. وارتبك ... أمكن أن يكون قد ضل الطريق؟!! أم ياترى أن الظلام هو الذي غير المناظر في عينيه ... أيمضى إذن قدماً في طريقه؟ صحيح أنه لم يزر خالته منذ أن استقروا في هذا البيت الجديد النائي إلا ثلاث مرات .. وكانت زيارته في الصباح ، إلا أنه كان يعتقد أنه يعرف الطريق إليه ... ربما كان إذن واهماً في تفكيره ... وراح يحاور نفسه ويداورها ويحاول خداعها بأنه على صواب حتى اقتنعت ، فمضى مسرعاً في طريقه لا يلقى على شيء ... وأخذ يطيل النظر في وجه كل من يقابله من المارة في أنوار المصاييح الخالية ، فتبدو له سحنات غريبة لم يعهدها ولم يتعرف على أحدها ... وأخذت عينه -- يعد أن قطع مسافة -- قهوة تتلألأ في جوانبها الأنوار ، وتضج بأصوات الرجال ، وقد برز من بينها صوت المذياع وهو يردد أغنية ... ودار في باله أن أباه قد يكون في هذه القهوة فهو يعرف أنه يغنى المقاهي كثيراً ويقضى فيها كل أوقات فراغه ، وخشى أن يراه على ضوء هذه الأنوار . فتكون واقعة سوداء ... فلجأ إلى الظلمة

الحالكة وأسرع في مشيته حتى لا يمكن الفرصة لوالده لو كان هناك في أن يلاحظه ، فإنه ليفضل أن يكون هائماً هكذا في الشوارع على أن يكون في قبضة والده في هذه الساعة ... ولكن هذه القهوة!! .. إنه لم يتعود رؤيتها أو ملاحظتها في المرات السابقة ... أليكون ذلك لأنه كان يزور خالته في وضع النهار ، أو أنه لم يوجه إليها انتباهه! ولاحظ - وهو في هذه الحيرة - رجالاً يتحدثون خف إليهم ليسألهم أين هو؟ .. ولكنهم كانوا منهمكين في الحديث ، ولم ينتبه إليه أحد أو يسمعه ، وهو يتم بصوته الخافت المضطرب ... وخجل أن يسألهم مرة أخرى أو أن يرفع صوته ، فتركهم ومضى إلى سبيله حائراً وجلاً يسير على غير هدى ... ورأى أن الأنوار - وهو يتعد - قد بدأت تختفي من جوانب الطريق ، وأث الشوارع أخذت تخلو من المارة ... وأن الضجيج أخذ يخف رويداً رويداً حتى لم يكده يصل إلى سمعه إلا أصوات ضئيلة مختلطة تنضح حين يهب الهواء ، وتختفي أو تنقطع حيناً آخر ...

فأخذ دبب اليأس يسرى في نفسه ، وتحول الشك عنده إلى يقين من أنه ضل الطريق ... وراح ينظر إلى هذه البنات القائمة كالأشباح وقد لفها الظلام وران عليها الصمت ... كأن أهلها وذويها قد هجروها وتركوها مأوى للعفاريث ... وأرعته الوحدة في هذه الشوارع المقفرة الموحشة ، وفي هذا الجو الرهيب ، فارتجفت أوصاله واصطكت ركبته من الخوف ، وأخذ قلبه يدق بعنف كأنه سجين يريد الخلاص ، وبلغ الاعياء به كل مبلغ؛ ووجد أنه في حاجة إلى البكاء ، فبكى ... وسرى صوته في هذا الليل البهيم ، وفي هذا السكون الشامل ، فسمعه رجل كان ذاهباً إلى أحد (الدواوين) ... فتوجه إلى الطفل التائه ووضع يده على ظهره بلطف وانحنى عليه وراح يتأمل وجهه وقد انهمرت من عينيه الدموع ... وقال له :

— لماذا تبكي يا بني؟ من ضربك؟

ولم يعهد محسن هذا الحنان من أحد ، واستغرب كيف يعطف عليه هذا الرجل الغريب وهو لم يره إلا الآن ... وكان هذا العطف كافياً لأن تسكن إلى الرجل نفسه ، وتطمئن إليه ، وتزول مخاوفه ... فأجابه :

— لم يضربني أحد ... ولكنني ضللت طريقى ..

— وأين يتسكّم ؟ ..

فصاح محسن منفعلاً :

— لا ... لا ... أنا لا أريد أن أذهب إلى بيتنا .

إني أخشى من أبي ... سيضربني .

— ومن هو أبوك ؟ .

— عبد الكريم الراجي .

ولم يبد على الرجل أنه يعرف أباه ، ولكنه أخذ يهدئه

ويطمئنه قائلاً :

— كفّ عن البكاء يا بني ولا تخش شيئاً ...

وأخذه من يده وقاده معه بعطف بالغ حتى وصل باباً استطاعت أذنا محسن المرهفتان أن تسمعا من ورائه لغطاً وأصواتاً لرجال يتحدثون ... وفتح الباب ودلف الرجل وهو ممسك بمحسن ، وتخطى الفناء وقاده إلى حجرة الديوان ، فوجد محسن رجلاً كثيراً قد جلسوا على الأرائك الوثيرة ، وبدا في صدر المجلس (راديو) إلا أنه كان مقفلاً .. وعم الصمت الحجرة ، وانقطع اللغط ، وتوجهت الأنظار ، وبدا على سياء بعضهم الدهشة لرؤية هذا الطفل الذي لا زالت عيناه مبللتان بالدموع ... وحيام الرجل أخيراً فردوا عليه التحية بأحسن منها ، وجلس وأجلس الصغير بجانبه ... وسأله أحدهم وكان في الصدرارة قريباً من (الراديو) ... وخيل لمحسن أنه هو صاحب المجلس ...

— ما الخبر يا أبا صالح ؟ ... ومن هذا الطفل ؟

— هذا المسكين اسمه (وانحنى على الصغير يسأله) —

ما اسمك يا بني ؟ ...

وأجابه محسن بصوته المتعثر الهزيل .

— محسن ...

واستمر (أبو صالح) في كلامه قائلاً :

— اسمه محسن ... الظاهر أنه قد ضل الطريق إلى

البيت .. فهل منكم من يعرفه ؟ ...

وسأله أحد الجالسين وهو قابع في زاوية الحجرة قد التلف بعبائته ... ولم يستطع محسن أن يميز ملامحه فقد كان في الظل ... إلا أن نور (مسيجارتة) كان يتألق وهو يسحب منها نفساً ... قال :

— ابن من ؟ ...

فأجاب أبو صالح ...

— لقد ذكر لي أن أباه يدعى عبد الكريم الراجي .

وصاح أحد الجالسين :

— ها !! . عبد الكريم الراجي ! .. إني أعرفه

معرفة جيدة ، فإن لي معه صلات تجارية ...

— فهل يمكنك إذن أن توصله إلى أهله ... لاشك

أنهم يبحثون عنه الآن في كل مكان ...

— لا مانع عندي مطلقاً .

وقام الرجل من فوره من مجلسه وتوجه إلى الطفل

وقال له :

— قم يا بني ... سأوصلك إلى المنزل .

فردّ عليه محسن بصوته الوجلل المضطرب .

— كلا ... لا أريد أبي ... سيضربني ... أريد أن

أذهب إلى بيت خالتي .

— لا تخش يا بُنيّ ... فلن يضربك ما دمت معي ...

هيا بنا ... وخرج الاثنان من المجلس وعاد الباكون إلى ما هم فيه من حديث ... وشعر محسن وهو يمشي بجانب هذا الرجل أنه لا فسكك له من هذا الأب ... ويا ويله الآن حينما يعود إلى البيت ... لا يكاد يدلف حتى يستقبله بوجهه العابس البغيض ، وبظنراته الغاضبة ... ويقذفه بشتائم ثم ينهال عليه ضرباً بكل ما يقع تحت يده ... ولن يشفع له بكاء ... ولن يستطيع أن يخلصه من قبضته أحد ... صحيح أن أمه سترثي لحاله ، وسيتفطر قلبها حزناً ، ولكنها لن تستطيع أن ترد بطش أبيه ... أنها عاجزة حتى عن الدفاع عن نفسها حينما يغضب عليها ويثور بها ، فكيف يمكن أن تحميه هو ؟ ! ... وما عذره الآن حينما يسأله عن هذه الغيبة ؟ ... أن بينهم ليس بعيداً جداً عن المدرسة حتى يتأخر إلى هذه الساعة من الليل ... ثم ان هذا الرجل الذي يسير الآن بجانبه لاشك سيخبر أباه بكل شيء ... وسيكون موقفه عندئذ في غاية الحرج ... ما الذي ذهب به إلى هناك ؟ لماذا لم يعد إلى البيت حال خروجه من المدرسة ؟ ... ألم يمنعه من مغبة التأخير ؟ ألم يكن العقاب الذي نزل به في هذا اليوم بسبب التأخير ؟ . وكان له أيضاً عذر في ذلك ، أما الآن فلا عذر له ولا حجة عنده ... من المحال أن يعترف له بكل شيء ويطلعه على كل نواياه ، وإلا فالويل له ... الأحسن له أن يصمت ... نعم ... ليس له إلا أن يصمت ... ولكن أخشى ما يخشاه هو أن يعود ويخبر المدير بأمره ويطلب إليه عقابه ...

نفسه القاء وهو يفكر في شيء واحد ... أنه لا خلاص له من هذا المنزل ... وأنه سيعيش فيه حتى الموت وكدره هذا الحاضر وأقلقه ، ولكن سلطان النوم كان أقوى من سلطان الخيال ، فلم يلبث أن استغرق في نوم عميق .

على زكريا الأنصاري

استدراك :

هذه بضعة سطور حذفت في العدد الماضي سهواً من مجلة « البعث » ص ٣٧ — سطر ٢٥ من النهر الأول ...

— محسن عبد الكريم ؟ ...

وهذه محسن وهو يسمع المدير ينطق اسمه كاملاً وصعد الدم ساخناً إلى وجهه ، ولم يكذب فيقول من هول هذه المفاجأة حتى يسمع صوت المدير وهو ينطق اسمه بصوته الجهوري الواضح مرة أخرى .

— محسن عبد الكريم الراجي ... ليحضر إلى هنا ...
وتهاشم الأطفال الذين يحيطونه الخ ... الخ ...

دار العلم للملايين

أهدانا صديقنا الأستاذ الكبير منير البعلبكي الكتاب الرابع من سلسلة « علم نفسك » التي تصدرها « دار العلم للملايين » بيروت للدكتور « جاسون » وقد نقله إلى العربية الأستاذ منير ، كما أهدانا كتاب « أنا عائذ من مراکش » للكاتب الإنجليزي « روم لاندو » ترجمة (أبو الريحان) ، وهو « قصة نضال مراکش وسلطانها العظيم من أجل الحرية والاستقلال والمجد » فللأستاذ الكبير خالص الشكر وصادق الثناء على هذه الهدية ، ولهذه الدار آيات الإعجاب والتقدير على ما تقوم به خدمات للأمة العربية بتعريبها نفائس الغرب .

التفسير الواضح

صدر الجزآن الرابع والخامس من هذا التفسير المختصر للقرآن الكريم الذي يقوم بوضعه الشيخ محمد محمود حجازي من علماء الأزهر الشريف نسأل الله أن يوفق المذكور إلى إكمال هذا السفر النفيس وينفع به المسلمين .

وسيقسو المدير في عقابه واهانته هذه المرة ... وسيحجزه أيضاً في حجرة العقاب (المسكونة) ... وانتفض جسمه لهذا الحاضر ، وتدفتت الذكريات الخفيفة (التي امتحنها هذا المساء) إلى ذهنه متلاحقة قوية مجسمة ... فارتاع واقشعر بدنه وتوقف فجأة ... فاستغرب الرجل وانحنى عليه يسأله (ماذا بك يا بني ؟ ... أتعبت ؟ ... لا بأس فقد وصلنا .. لم يبق إلا بضعة خطوات) وكان الرجل صادقاً فلم يكذب يسير مسافة بسيطة حتى وقف أمام المنزل وطرق الباب ... وبعد هنيهة سمع محسن صوت أمه من خلف الباب وهي تقول بلهفة ظاهرة ...

— من ؟ ...

— هذا محسن ولدكم ... الظاهر أنه قد تاه ... ولم تملك الأم المسكينه نفسها فصاحت من الفرح والدهشة ...

— محسن ؟ ! ... جزاك الله خيراً ... فقد تعبنا ونحن نبحت عنه منذ المساء دون جدوى ...

ودخل محسن البيت فاستقبلته أمه بضمة قوية أودعتها كل ما يحمله قلب الأم من حنان وعطف ... وقالت له وعينها تدمع من التأثر ...

— كيف هان عليك أن تذهب وتركنا هكذا حائرين ؟
لقد بحثت عنك أختك (منور) في كل مكان دون طائل ... حتى لقد ذهبت إلى الظنون والمخاوف كل مذهب خشيت أن تكون قد دهمتك سيارة ...

ورأته متردداً متلثماً في الدخول ، فقدرت ما يدور في ذهنه ، وقالت له مطمئنة .

— لا تخش شيئاً ... أبوك غير موجود ... لقد خرج من البيت قبل المغرب ولم يعد حتى الآن ...
فارتاح لسماع هذه الكلمات ، واطمأن قلبه وفارقه مخاوفه وقدمت له أمه الطعام خالاً .

وفي هذه اللحظة فقط أدرك محسن أن الجوع يقرص معدته ولكن شهيته لم تكن متفتحة للأكل فقد كان منهك القوى خامل الأعضاء ، فاكنتي يبيض لقيمت ... ولاحظت أمه منه هذا الفتور والاعياء فلم تشأ أن تضايقه بالأسئلة الكثيرة التي تجول في رأسها ... وقادته إلى فراشه فالتقى